أين أمين دمشق؟

التشويه البصري والهندسي لمدينة دمشق باسم الحداثة!

لا نقف عند مصائب دمشق القديمة التي تحتاج إلى وقفة مطولة!

كيف تحول حي الشعلان أرقى أحياء دمشق إلى سيرك حقيقي اليوم لا مكان لأهله فيه؟

| سامي مبيض

ما حدث في دمشق على مدى ثلاثة أيام متقطعة، من سيول وفيضانات، هو ليس غضباً من الله كما حاول البعض تصويره، وإنما مجرد نتيجة طبيعية ومتوقعة لسنوات طويلة من سوء التخطيط والإهمال والفوضى. السيول ليست جديدة على دمشق، وأهلنا يعرفونها جيداً منذ زمن، عندما كانت تصل إلى مدينتهم عبر منافذ وأقنية سفح جبل قاسيون، فتصب في نهر يزيد وعند امتلائه تنزل إلى مستوى نهر تورة، لتسقي بساتين الصالحية وأبو حرش والنيرب (غرب المالكي) ومنطقة ركن الدين، وقد رأينا فيديوهات غرق سياراته أثناء السيل قبل أيام وجرفها مع البشر في مناطق المخالفات والعشوائيات. كنا يومها نصف السيول بالخير لا بالغضب أبداً.

لو قبلنا ما حدث في دمشق على مدى ثلاثة أيام واعتبرناه خطأ أو مفاجأة، حتى في شارع الرئيس شكري القوتلي (طريق المعرض القديم) الذي رمم منذ أقل من عام، ألا يحق لنا أن نسأل وبكل جدية: «من يخطط لدمشق اليوم؟».

من أعضاء اللجنة التي تعطي تراخيص البناء والهدم، وتخطط للصرف الصحي، والتي من المفترض أن يكون أعضاؤها «أمناء» على دمشق؟

كانت المحافظة تعرف بالماضي باسم «أمانة العاصمة» وفي زمن الانتداب، صار اسمها «محافظة مدينة دمشق الممتازة»، لا أعرف من أين جاءت كلمة «ممتازة»، ربما لأنها كانت فعلاً ممتازة، تفوق كل مدن الشرق جمالاً وعراقة وسمعة وبهاء، ففي عام ١٩٥٦ نالت دمشق لقب «عاصمة الأناقة» من الأمم المتحدة، وصنفت إلى جانب فيينا وباريس وروما.

شتان ما بين اليوم والأمس، بعد كل هذا التشويه البصري والهندسي الذي تعرضت له دمشق، ظناً من القائمين عليها أنهم يلبسونها ثوب الحداثة والجمال.

إن قائمة المخالفات التي تفقأ العين تزداد كل يوم، وأقول هنا أني لست عارفاً بالهندسة أو معمارياً لأقرر ذلك، بل مجرد مواطن بسيط، يراقب ويتألم.

يثير انتباهي العدد الكبير من الأكشاك التي باتت تحتل معظم أرصفة المدينة، ومنها كشك عملاق أمام فندق أمية، يتحول يومياً إلى سوبرماركت مخالف، يبيع كل أنواع المهربات ومنها الكحول. كانت مشكلتنا مولدات الكهرباء، وكولابات الحراسة، ثم المقاهي والآن الأكشاك، ليتحول السير على الأقدام في دمشق إلى مهمة شاقة وكريهة، بعدما كانت من أجمل خصائص دمشق.

لو تجاوزنا كل تلك الأمور وتوجهنا باتجاه «شارع الجلاء» (أو شارع أبو رمانة) نجد أن المصيبة تكبر أكثر فأكثر، مع نسف التناظر بين المحلات والمقاهي التي أقحمت في أرقى شوارع العاصمة، من دون أي ضوابط جمالية أو هندسية. سمح لأصحاب تلك المتاجر بتغيير واجهات الأبنية القديمة، بحجة أنها لا تدرج تحت بند «أبنية أثرية» لأن عمرها لا يتجاوز مئة عام، ولكنها قبد بلغت السبعين من العمر، فلماذا لا نتعامل معها برفق واحترام؟ والكلام هنا موجه لأصحابها وقاطنيها وللمحافظة في آن واحد.

الحالة نفسها تتفاقم في حي الشعلان، المشيّد في مطلع العشرينيات وقارب مئويته الأولى، والذي ضم يوماً بيوت أرقى عائلات دمشق. فقد تحول اليوم إلى سيرك حقيقي، لا مكان لأهله بين ازدحام المقاهي والبارات والمطاعم. لا أحد يعترض على استرزاق الناس، ولكن يجب أن يتم إلزام تلك المنشآت بهوية المكان وتاريخه، فمن خطط للشعلان منذ مئة عام لم يزرع الأشجار عن عبث، ولم يحدد حجم الأرصفة من فراغ، ولم يكن يهذي عند تحديده لشكل الأبنية وواجهاتها الحجرية وأبوابها ونوافذها.

في ساحة المرجة، حدث ولا حرج، من أكشاك وبائعي ترمس، وقوارض تخرج من تحت الأرض وتتجول في وسط «ساحة الشهداء»، يتجاهلها الناس بسبب الفقر والعوز لمتنفس. أما عن سكان حي الروضة، فقد تحولت حياتهم إلى جحيم، بسبب رائحة النهر الذي كان الدمشقيون يتغنون به ويكتبون فيه القصائد العصماء. نعم، تحول بردى من نعمة إلى نقمة.

سنتوقف عند هذا الحد ولن ندخل في مصائب مدينة دمشق القديمة التي تحتاج إلى مقال متخصص ومنفرد، ابتداء من الأبنية الحديثة التي ظهرت بسوق مدحت باشا، مروراً بشرائط الكهرباء في حي العمارة، والحرائق المتكررة خلف الجامع الأموي، وصولاً إلى خمارات باب شرقي، والتي قال البعض متفاخراً أنها حولت الحي «جميزة دمشق» في إشارة إلى شارع البارات في بيروت.

في زمن ليس ببعيد، كان هناك منصب «أمين عام العاصمة»، ألم يحن الوقت لاستحداثه، ليكون الأمين أميناً على هوية دمشق، لا تتعدى مهامه البت في شكل العمار والطرقات العامة، ومدى التزامها فنياً وجمالياً، بطابع المدينة التاريخي؟ التوصيف بسيط: أن يلتزم الأمين بما جاء في الكتب، لضمان الحفاظ على شكل المدينة وهويتها، من دون الدخول في الأمور الأمنية، وقضايا الصرف، والتعيين والترفيع والتسريح.

ألم يحن الوقت لإنشاء «مجلس أمناء مدينة دمشق» ليكونوا السلطة الرقابية على هوية المدينة، مخولين بمعاقبة كل من يخالفها، سواء كان فرداً أم مؤسسة حكومية أو خاصة، تكون سلطة العقاب لديهم غير قابلة للطعن، وقد تصل إلى حبس كل «حربوق» يعتقد أن المخالفة والاحتيال هما نوع من الشطارة ولو كانا على حساب مدينته.

نحن ندرك أن الحرب على سورية لا تزال قائمة وأن حالة من الفوضى تعم كل المدن، وأن كثيراً من السوريين ضربوا عرض الحائط بكل هذه الاعتبارات، لكننا أيضاً مؤمنون بضرورة الحفاظ على هويتنا ومدننا، فقد حان الوقت لنعمل على ضبط وإزالة كل التشوهات البصرية والمخالفات التي شيدت خلال سنوات الحرب، لنعيد الألق إلى كل المدن السورية، ليس من أجلنا، فقد فاتنا القطار نحن، وإنما من أجل الأجيال القادمة، التي بدأت تدعو علينا.

الفنان السوري الذي يرسم للأطفال هو الأدنى أجراً في الوطن العربي

الفنان رامز حاج حسين لـ«الوطن»: من يرسم للأطفال يجب أن يكون عالي الثقافة وأكاديمياً نحن فقيرون في هذا المجال

| سوسن صيداوي

بين الأمل والاستمرار هناك وميض، بين الضرورة والالتزام هناك المسؤولية، وبين الضحك واللعب هناك طفل، وأخيراً بين الخطوط والألوان هناك رسومات تحكي قصصا له. القرب والتقرب من الطفل ليس بالأمر الهيّن، نقيمها فيها، نتعلم من الطفل نفسه، والمثال على ذلك، أنا خريج كلية الفنون الجميلة، وكان لدي أنا وزملائي تصوّر مسبق بأن الطفل تبهره دائماً الألوان الفاقعة، على حين في ورش العمل اكتشفنا العكس، وأن أطفالنا هم أطفال هادئون وتستهويهم الألوان الترابية والألوان الدافئة التي عبّروا بها عن لوحاتهم، ومن خلال هذه الورشات تعلمنا أموراً عن الأطفال وأصبحنا نعرف كيف نتواصل معهم ونكون قريبين منهم، وأن نكون جسر وصل بين الأطفال المبدعين والأطفال المتلقين كما عملنا بتجربة (سنابل الأمل) وهي تجربة جمعت أطفالاً مبدعين، ونحن اقتصرت مهمتنا على وضع اللمسة الأخيرة.

• في البداية إلى أي مدى يعتبر أمرا متعبا وصعبا الرسم والتلوين الخاص بالأطفال؟

هذا الشيء على الأكيد أمر متعب، وخاصة عندما يكون العمل مرتبطاً بمجلة، فهنا على الرسام أن يقدم للطفل إضافة للوجبة الثقافية والتربوية، بالمقابل يجب أن يقدم وجبة فنية. وأنا متمسك بالعبارة التالية وأرددها بشكل دائم: (الفنان الذي يقدم رسوما للأطفال يجب أن يكون مثقفاً عالي المستوى).

• ولكن ما تؤمن به مناقض للمفهوم السائد بأن ما يتم تقديمه للطفل محكوم بالاستسهال والاستخفاف، ما تعقيبك؟

صحيح، لا يكفي أن يكون الفنان محترفاً أو مقلداً أو ناقداً، بل يجب أن يكون فنانا مثقفا سواء في فهم النص أم أتخيّله والعيش معه في ذاته الخاصة، ومن ثم عليه أن يقوم بإعادة صياغته عبر الرسوم والألوان. وبالفعل نحن نعاني وجود البعض ممن يقدمون رسومات يحكمها الاستسهال، بل يعملون بموجب عرف معتاد وهو أن الفنان ينزل بالرسوم إلى مستوى الطفل، وهذا أمر مغلوط تماما، لأنه علينا أن نحلّق ونرتقي بفننا نحو الطفل، وخصوصاً أن هناك الكثير من الأطفال يقدمون لوحات أو رسوماً أو يسألوننا أسئلة نحن نقف أمامها عاجزين عن إدراك حيثياتها، لذلك التواصل المباشر مع الأطفال أمر جدّ مهم باعتبارهم المتلقي لأعمالنا، ومن جهة ثانية نحن إذا لم نأخذ مفردات هذا الطفل وأسلوبه في تحليل الشخصيات والرسوم وكل الأجواء المحيطة به، فلن نتمكن من تقديم الوجبة له بطريقة صحيحة، بل سيكون هناك حلقة مفرغة بيننا نحن الكبار وبين هذا الطفل، لذلك أحب أن أشير إلى أنني وخلال عملي كمشرف فني في مجلة أسامة، ومن خلال ورش العمل التي فالأمر يحتاج إلى ذكاء وإلى تفّهم ويحتاج إلى عاطفة كبرى ممزوجة برغبة في التربية لا التلقين. نحن اليوم يجب أن نمسك ونتمسك بالعناصر القادرة على استقطاب الأطفال واستحواذ تفكيرهم، كي نعطيهم ما يحتاجونه بأسلوب ممتع، صابرين ومتأنين بكل رفق عليهم وعلى سنين هذه الأزمة المرّة، فالأطفال سيقدمون لنا كل ما هو أفضل باعتبارهم اللبنة الأساسية للمستقبل. من هنا فردية، ويمكنني هنا أن أطرح مثالاً من خلال عملي في مجلة أسامة التي منذ تأسيسها وحتى اللحظة الرسوم التي قدّمت ونُشرت فيها هي حالات إبداعية وفردية لأساتذة كبار، والدليل على ذلك أنه ومع وفاة الفنان التشكيلي ممتاز البحرة ذهبت التجربة من دون أن تدرّس لأجيال قادمة، وهذا أمر ليس بصحي، فهذه التجارب الفردية ولّادة لإبداع كبير، ولكن وللأسف لا يوجد من يهتم للاستفادة منها وحفظها. وبالفعل أكاديميا نحن نفتقر لإمكانية رسم لوحة صحيحة للطفل، ولكننا كنادر في المجلة نسعى إلى توجيه العاملين بأننا نريد تقديم الأمور الفنية من حيث التشريح والألوان بطريقة صحيحة، وأن يكون العمل نابعاً من هوية محلية كما أسلفت مما يساعدنا في النهاية على الحصول على منتج وطني.

• الجهد الذي يبذله الفنان التشكيلي السوري الذي يقوم بالرسم للأطفال لا يقابله أجر مادي يقارن بما يبذل.. ما تعقيبك؟

بالفعل، الفنان التشكيلي السوري الذي يقوم بالرسم للأطفال هو الأدنى مرتبة وأجورا في الوطن العربي، ولتأكيد كلامي الفنانون الحاليون الذين يعملون معنا في المجلة، يقدمون الرسومات محبة، وحتى إنهم يتركون التعامل معها كآخر أمر يقومون به شهرياً، وهذا الأمر مبرر ما دامت الأجور لا تستوفي التعب ولا المجهود أو حتى الوقت المبذول أو تلبي الأمور المعيشية، ومن ثم من الطبيعي أن يهاجروا إلى القطاع الخاص القادر على تأمين أمورهم المعيشية، وهذا الأمر مؤلم جداً بالمقارنة مع التجارب في الخارج، من حيث تكريم المبدعين والاهتمام بهم وبظروفهم كلّها، مع الإحاطة بهم كي يقدموا إبداعهم للآخرين، والتجربة الفرنسية في هذا الخصوص مع الرسام(ألبرت أديرزو) الذي قام برسم سلسلة (أبطال الاستريكس) خير مثال، حيث قامت الجهات المختصة بتأمين كل ظروفه المعيشية كي يتفرغ لتعليم خطه وفنه. وهنا أحب أن أشير أننا نشكر وزارة الثقافة لاهتمامها بمجلة أسامة ولتقديمها كل ما هو مستطاع في الوقت الحالي وخلال هذا الظرف، ولكن علينا أن نفكر في الأمور وننظر نحو البعيد لا أن نلبي فقط ما هو آني ووقتي لأننا بالنهاية نقوم بتشكيل الطفل الذي هو باني المستقبل، بمعنى يجب تأمين الظروف كي يتفرغ الفنان لعمله كي لا يسعى للعمل نحو جهات أخرى، وبالنتيجة كي لا يذهب طفلنا السوري للجهات الأخرى كي يحصل على الكتب والمجلات التي هي في الأصل من ابتكار مبدعين محليين سوريين، هذه الهواجس التي تؤرقنا، ولكن يبقى الأمل لدينا كبيراً، لأن سورية ولادة وإمكانيات مبدعيها لا يمكن أن تكون محدودة أبدا، ولكنها تحتاج إلى توظيف الفرص بالشكل الأمثل، والدليل كيف يتم استقطابهم وتوظيفهم واستثمار إبداعاتهم في الخارج.

• وكأنك تشير إلى أن العمل في هذه الظروف وحتى في الظرف الحالي لمجلة أسامة يثير إحباط الفنان؟

بالطبع، لأن الفنان في المجلة يقدم إبداعه شهرياً وعلى مساحة صفحتين، وهو بالفعل بحاجة إلى رعاية وإلى من يتبنى موهبته بشكل جدي وفاعل أكثر.

• برأيك ما الحلول الناجعة في هذا المجال؟

نحن بحاجة إلى خطة وطنية تتضافر بها كل الجهود، كي نخرج بما يمكننا تسميته شعبة رسوم الأطفال أو شعبة الرسوم المتحركة، بمعنى أن يكون هناك مشروع وطني معني بشؤون الأطفال بالدرجة الأولى ومن ثم معني بأمور هؤلاء الفنانين ومسؤول عنهم.

تتضافر الجهود وبحسب الاختصاص كي تستقطب اهتمام الطفل بالكلمة أو بالرسوم، الأخيرة التي تحتاج إلى علم وذكاء وتتطلب أسلوبا دقيقا كي تخرج بمنتج جذب بصري محلي معبر. وحول هذه النقطة ونقاط أخرى جدّ مهمة، كان لقاؤنا مع الفنان التشكيلي رامز حاج حسين المشرف الفني في مجلة أسامة، وإليكم الحوار:

• السؤال الأخير.. أشرت في حديثك إلى أمر جدّ مهم وهو أن طفلنا السوري هو متلق سلبي.. هل توضح؟

هذا هو الواقع، إن انعدام وجود أعمال تمثل طفلنا محليا وتكون في الوقت نفسه حاضنة له، تصرفه دائماً نحو الغربيين الذين بدورهم ناجحون وممتلكون لعناصر الجذب البصري من خلال الرسوم والألوان، والأمر المرعب أنهم هم من يقومون بتربية طفلنا من خلال ما يقدمونه من أفلام ومجلات وكتب وقصص، وفي النهاية يعيش طفلنا في شرخ كبير بين الواقع المحلي الذي يعيشه وبين الغربي الذي تربى على أفكاره وثقافته، وما علينا إدراكه في الوقت الحالي أن طفلنا السوري بحاجة إلى ثقافة ترميمية خاصة وهي ثقافة بعيدة عما كان سائدا قبل الأزمة، فواقعنا اليوم يفرز أطفالا يعانون العنف وقلة التربية والتعليم، حتى إنهم يتعاملون بمفردات الحرب فقط، فهنا الأمر خطير جداً وعلينا إعلان ما أسميه النفير الطفولي العام الذي يجب أن يعلن من الأمس الماضي وليس اليوم الحاضر.

يجب أن نكون حذرين لأن المفردات البصرية التي في بيوتنا فيها ألوان العلم الأميركي الأحمر والأزرق، وطفلنا ثقافته مبنية على شخصيات (سوبر مان وسبايدر مان وبات مان) كلّها تعزز البطولة الفردية والأنانية، وبالمقابل نحن لدينا مثلا شخصية أسامة التي أسسها الفنان ممتاز البحرة والكاتب عادل أبو شنب ونجد أنه أمر معقد بأن نحيي هذه الشخصية، التي هي الأصدق لطفلنا لأنها من بيئته ومن ثقافته، بل علينا أن نخبره بأساطيرنا وأبطالنا التاريخيين الذين بنوا الحضارة السورية، لا أن ندفع أطفالنا نحو الغرب بشخصياته الوهمية. إذاً على الجهود أن تتضافر لتبني أدب وفن الطفل، وخاصة أن الحرب والأزمة خُلقت وامتدت عبر الريف لانعدام الثقافة.